الفصل الثامن

السباحة في النهر نفسه مرتين

بعد مرور عام على رئاسة مديرية التحكم الرئيسة، غدا بوتين متعبًا من إجراء التحقيقات التي تسفر عن نتائج متباينة، وقد كشف الفساد حالات المماطلة في النظام القضائي، وعرف أن التلاعب به يجري بمنتهى السهولة، لكن كان لديه قليل من السلطة التي يتحدى بها المصالح الخاصة للمسؤولين، كما أن هناك قليلًا من الحملات العنيفة لتغيير النظام، تذكَّر: «لم يكن العمل خلاقًا»، وادعى أنه في وقت لاحق فكر في ترك حكومة يلتسين بأخطائها للقطاع الخاص في شتاء 1997– 1998م، وفكر أيضًا أن يمارس مهنة المحاماة، مع أنه ليس على يقين أنه يستطيع كسب العيش من هذه المهنة، وما منعه من ذلك، على نحو غير مباشر، هو الانهيار الوشيك للاقتصاد الروسي الجديد، ومعه الدولة أيضًا[1].

مع بداية عام 1998م اجتاحت بوتين ما يمكن وصفها بـ«ثورة المديرين أصحاب الرتب المتوسطة غير المعروفين»[2]، فالتفت يلتسين إلى هؤلاء الموالين من الرفاق الشباب مجهولي الهوية؛ تفاديًا لوقوع كارثة وطنية، وزوال مشروعه السياسي الخاص.

بعد سنة من إعادة انتخاب يلتسين والنقاهة التي أعقبت جراحة القلب التي أُجريت له، بدت البلاد مستقرة بعد ترنحها من الأزمات التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفييتي؛ فقد تراجع التضخم، ونما الاقتصاد للمرة الأولى منذ عام 1989م، وإن كان أقل من نصف في المئة، صحيح أنه لم يتفاءل أحد، لكن يبدو أن الأسوأ مضى. كتب يلتسين في مذكراته:

«الجميع يحدوهم الأمل، وأنا واحد منهم، كنت آمل أن نشعر بحلول النصف الثاني من عام 1997م وأوائل عام 1998م أن شيئًا في البلاد سوف يتغيّر»[3]، كان شيئًا ما، لكن ليس ما كان يتصوره هو أو أي شخص آخر؛ فالأزمة الاقتصادية التي اجتاحت آسيا في خريف عام 1997م أدت إلى تراجع الاقتصاد العالمي، وكان الأخطر على روسيا هو سعر النفط؛ فقد بيع برميل النفط في نهاية عام 1997م بأقل من كلفة استخراجه لدى شركات النفط الروسية. وفي الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1998م خسرت الصناعة التي توفر معظم الموارد لروسيا أكثر من 1.5 مليار دولار[4]، وتراجعت الإيرادات الحكومية بسبب التهرب الضريبي المتفشي، وهُرِّبت رؤوس الأموال إلى حسابات في الخارج، واستنزفت حكومة يلتسين احتياطاتها في محاولة منها للاستمرار.

في 21 مارس/آذار 1998م استدعى يلتسين رئيس وزرائه فيكتور تشيرنوميردين، إلى بيته الريفي، وأمضى وقتًا أكثر مما أمضاه في الكرملين. وكان تشيرنوميردين قد عمل في منصبه أكثر من خمس سنوات، مبرهنًا أنه الحصن المنيع في الحكومة، وفي أسوأ سنوات الاضطراب السياسي والاقتصادي.

مع الضعف المتزايد ليلتسين، والانتخابات الجديدة التي بدأت تلوح في الأفق، اعتقد بعضهم أنه قد يكون خليفة الرئيس، وهي الفكرة التي عذبت يلتسين، الذي أراد شخصًا «لا تؤثر فيه أي مجموعة سياسية أو مالية»[5]، وهكذا أقال تشيرنوميردين، وقدَّم أسبابًا غامضة ومتضاربة عن فعله هذا، وادعى أن البلاد بحاجة إلى التكنوقراط، ولكن في الواقع كان يريد رئيس وزراء تابعًا ولا يريده منافسًا ينتظره. وقد وقع اختيار يلتسين على سيرجي كيريينكو ليحل محله، وهو مصرفي سابق من نيزهني نوفغورود، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، أصغر من تشيرنوميردين بنحو ربع قرن، وكان قد وصل إلى موسكو في العام قبل الماضي فقط ليشغل منصب وزير الطاقة، ولم يعلم بمصيره إلا في صباح الإعلان. ووفق إملاء يلتسين فقد كان عليه أن «يلملم نفسه وأن يضطلع بمهمته جيدًا»[6].

رفض **مجلس الدوما** مرتين ترشيح كيريينكو، وهذا يعني تراجع نفوذ يلتسين، وخلق جو لأزمة سياسية، فأعلن تشيرنوميردين على الفور أنه سيسعى للرئاسة عام 2000م، مؤكدًا مخاوف يلتسين من طموحاته. حتى بعض الذين ساندوا يلتسين قبل عامين أعلنوا اليوم تأييدهم لتشيرنوميردين، وأهمهم بوريس بيريزوفسكي؛ ذلك القصير، الأصلع، عالم الرياضيات السابق، الذي بنى إمبراطورية مالية شملت صناعة السيارات والمصارف والنفط والتحكم في شبكة التلفاز الحكومية (ORT)، التي استخدمها أداةً للسلطة السياسية والانتقام. وكان يلتسين قد عيَّنه في مجلس الأمن التابع له بعد إعادة انتخابه عام 1996م، ثم أقاله على نحو مفاجئ.

كان بيريزوفسكي زئبقيًّا ولا عهد له، والحليف في ذهنه مجرد «ظاهرة مؤقتة»[7]، وكان ينظر إلى كيريينكو على أنه مصلح ضمن فئة أناتولي تشوبايس أو بوريس نيمتسوف، الشابين الليبراليين اللذين جُلِبا لإعادة هيكلة الاقتصاد الروسي؛ أي إن كيريينكو وقف في طريق مصالحه التجارية[8]، وقد استخدمت شبكته التلفازية كل ما لديها من سلطة ضد المرشح، وتحالف مع الشيوعيين في البرلمان الذين يحتقرونه لكونه قطبًا من الأثرياء.

لم نجح يلتسين في الدفع نحو تعيين كيريينكو إلا من خلال التهديد بحل البرلمان، حيث يسمح الدستور بذلك، إذا لم يوافق على ترشيحه بعد ثلاث جولات من التصويت، وبصعوبة تمت الموافقة على ترشيح كيريينكو في التصويت الثالث، وعزَّى معارضو يلتسين أنفسهم في البرلمان بصياغة مواد الاتهام.

الهزة في حكومة يلتسين كانت فتحًا آخر لبوتين؛ ففي مايو/أيار 1998م تولى وظيفته الثالثة الجديدة في الكرملين في أقل من عامين. لم يكن قط مقربًا من يلتسين، ولا يمتلك من القوة ما يكفي ليُحسب حسابه في المكائد، ثم إن كفاءته وولاءه مكنته من الثورة على البيروقراطية، وكان في كثير من الأحيان يفاجئ الناس أمثال تشوبايس. هذه المرة عيَّنه يلتسين النائب الأول لمدير الإدارة الرئاسية، ليتولى مسؤولية العلاقات مع 89 منطقة في

البلاد، وكان العمل امتدادًا طبيعيًّا لعمله في مديرية التحكم الرئيسة، حيث جمع ملفات الفساد والمخالفات التي كتبها المسؤولون الإقليميون.

روسيا هي اتحاد من مناطقها، ومع أن دستور 1993م منح الرئيس صلاحيات مركزية واسعة، فإنها تعمل كإقطاعيات مستقلة، وبفضل الانتخابات المحلية التي تجرى في تلك المناطق، يتمتع القادة الإقليميون أيضًا بسلطة سياسية مستقلة، ومن ثم يمثلون تهديدًا محتملًا لتفوق يلتسين.

ازداد انعدام الثقة عند يلتسين عندما تحول منافسه ألكسندر ليبيد إلى حليف ثم إلى عدو، وفاز في الانتخابات بمنصب محافظ في منطقة كراسنويارسك في سيبيريا في مايو/أيار، وبدا واضحًا أن طموحاته الرئاسية لم تضعف على أقل تقدير.

نظر بوتين إلى النظام السياسي المتمزق على أنه سلسلة من الانحلال المستمر للدولة، وكان الصراع في الشيشان من أجل الاستقلال مثالًا قويًّا على أن روسيا تنخر من الداخل، وتذكر بوتين بأن عِقد سلطة الدولة قد فرط، ولا بد من استعادته[9]، وقد أخبر الصحفيين أن مهمته الرئيسة اليوم تتمثل في تنفيذ مراسيم يلتسين على المستوى الإقليمي، لكن أكد أنه لا ينوي بذلك «تشديد الخناق»[10]، فليس لديه الوقت أبدًا لفعل ذلك. بقي بوتين في هذا المنصب واحدًا وستين يومًا، وهي المدة الكافية لتنصيب زميل له في (كي جي بي) من بطرسبورغ، الجنرال نيكولاي باتروشيف، بوظيفته القديمة في مديرية التحكم الرئيسة، ولكن ليس لإنجاز أي شيء آخر.

بعد يومين من آخر تعيين لبوتين، تحطم سوق الأسهم في روسيا، وكانت الأسهم قد فقدت نصف قيمتها منذ بداية العام، فمحت ملايين الدولارات من الثروة، وإن كانت هذه الأموال من جيوب النخبة الذين يستطيعون تحمل كلفة الاستثمار؛ فالفقراء ليس لديهم ما يخسرونه. تراكم تأخير الأجور باطراد، وانتشرت الإضرابات بسرعة، وبدأ المستثمرون

الأجانب بسحب رؤوس أموالهم، في حين هرَّب الأثرياء الروس أموالهم إلى الخارج، وألغيت خصخصة روزنفت، آخر شركة نفط مملوكة للدولة؛ لأنه لا يوجد من يعرض سعرًا لشرائها.

4 مليارات دولار من صندوق النقد الدولي كانت كافية لوقف الانهيار في روسيا، ولكن لمدة وجيزة فقط، وكافحت حكومة يلتسين للحفاظ على قيمة الروبل، لكنها كانت معركة خاسرة؛ فالحكومة كانت أشبه بفرع الإطفاء الذي عليه أن يتعامل بسرعة مع مزيد من ألسنة اللهب الجديدة[11].

إحدى تلك الحرائق التي شغلت يلتسين هي ولاء لـ FSB، حتى مع انفجار اقتصاد البلاد، خفَّض يلتسين من سلطة الوكالة؛ فيلتسين الذي كسر- أكثر من أي شخص آخر- القبضة الحديدية للحزب الشيوعي السوفييتي، لا يمكنه قطعًا أن يصل إلى تطهير وكالات الاستخبارات بنفس حماس الألمان بعد عام 1989م؛ فقد اعتمد اعتمادًا كبيرًا على ضباط المخابرات وقادتهم على أمل كبح نفوذهم في السياسة والمجتمع؛ من خلال تأليب بعضهم على بعض[12].

بالنسبة إلى قدامى المحاربين في الـ(كي جي بي)، كانت التغيرات التي حدثت في التسعينيات مربكة ومهينة لهم، وترك عدد منهم صفوفها ليصبحوا رؤساء للشركات الأمنية التي غرقت في معارك عنيفة على الأصول (الأشياء الثمينة)، ودخل آخرون في الإجرام، واستغلوا نقاط ضعف الحكومة، ومن الصعب في كثير من الأحيان التمييز بين هذا وتلك.

بعد وقت قصير من إعادة انتخابه في عام 1996م، كان يلتسين قد عيّن المخضرم في الـ(كي جي بي)، الجنرال نيكولاي كوفاليوف، مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي الذي أنشئ حديثًا، وكان الرئيس السادس للأجهزة الأمنية المحلية منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد عدَّه يلتسين المدير الكفيَّ، ولكن عزَّز في مكتبه «الكراهية الهائلة للتجارة ومن يمثلها»، وكتب يلتسين: «كان يحتقر الناس ذوي الجيوب الممتلئة»[13]. ولم يكن وحده من بين ضباط الأمن الذين احتفظوا برواتب موظفي الحكومة التافهة، وكما هو حال كثير من الروس العاملين،

شاهدوا الثروات الهائلة تهبط في أيدي قلة من الناس ذوي الامتيازات (الذين- من وجهة نظرهم- لا يستحقون). ولأن الأجهزة الأمنية تاريخيًّا تعادي السامية، فليس من المستغرب أن يصب كثيرون كل غضبهم على القلة القليلة التي كانت من اليهود؛ فاليهود (باعوا روسيا)، كما يعتقدون، وتلاعبوا بالرئيس، وخلقوا الأزمة الاقتصادية التي بدأت تتكشف[14].

أكثر ما سبب الانزعاج ليلتسين أنّ الـ FSB في ظل كوفاليوف، بدأت بالبحث عن (أعداء الشعب) الجدد، بجمعها الكومبرومات (مواد المساومات) ضد المسؤولين التنفيذيين في المصارف وغيرها من الشركات، مثلما فعل المحققون ضد سوبتشاك، واليوم بدأت حماسة FSB تهدد الناس داخل (أُسرة) يلتسين، بل وتهدد يلتسين نفسه، الذي قرر كبح جماح الوكالة؛ ومن ثم فهو يحتاج إلى رجل محسوب عليه في الـ FSB.

بوريس بيريزوفسكي، الذي لفتت سيطرته على إيروفلوت انتباه النائب العام، والذي يتمايل داخلًا وخارجًا من دائرة يلتسين، دعم وصوله إلى مستشاري الرئيس، على الرغم من أنه لم يلتق إلا نادرًا مع الرئيس نفسه. فالنتين يوماشيف، المساعد المقرب من يلتسين، أخبره أن يلتسين لم يعد يثق بجنرالات الـ FSB، «وزمرتهم المتماسكة جدًّا». وفي أوائل شهر يوليو/تموز، كان يلتسين قد أعلن عن خطط لإعادة تنظيم الـ FSB، وشمل ذلك خفض عدد الضباط في لوبيانكا، ولكن كوفاليوف لم يكن متحمسًا لتنفيذ هذا الأمر. ويذكر يوماشيف أن يلتسين أراد أن ينظف المنزل، وسأله هل لديه أي أفكار حول فلاديمير بوتين.

تذكر بيريزوفسكي صفقة عرضها عليه قبل سنوات في بطرسبورغ، فقد أراد فتح متجر لبيع السيارات، وفوجئ أن بوتين رفض حتى مجرد التفكير في الرشوة التي كان مستعدًّا لتقديمها[15]، قال بيريزوفسكي: «كان أول بيروقراطي يرفض قبول رشوة، وقد ترك هذا انطباعًا كبيرًا في نفسي»[16]، سواء ما تذكره بيريزوفسكي كان عاملًا أم لم يكن، فقد كسب بوتين سمعة تميزت بالكفاءة والانضباط لحد الزهد، مع أن آخرين لاحظوا قدرته على كتم السر.

شاهده يلتسين أول مرة عندما كان يعمل في مديرية التحكم الرئيسة، ووجد تقاريره (نموذجًا للوضوح)، وخلافًا لأحاديث ومكائد مساعديه التي لا نهاية لها، لم يحاول بوتين أن يضغط على رئيسه بأي جدول أعمال، أو يضايقه بأصغر الأحاديث، فقد حاول في الواقع أن «يزيل أي نوع من الاتصال الشخصي» مع يلتسين، وقد قال يلتسين: «ولهذا السبب تحديدًا أردت أن أتحدث معه أكثر من ذلك»، فقد كان حذرًا من (برودة) بوتين في البداية، ولكن فهم بعد ذلك أن هذا (متأصل في طبيعته)[17].

بعد لقائه في المنتجع الرئاسي في كاريليا لاتخاذ القرار النهائي بشأن إقالة كوفاليوف، عاد رئيس الوزراء الجديد الشاب، سيرجي كيريينكو، إلى موسكو، واستدعى بوتين للقائه في المطار عند وصوله. لم يسبق ليلتسين أو رئيس وزرائه أن استشارا بوتين بالوظيفة؛ فقد كان وقتها مجرد بيدق في لعبة الشطرنج السياسي التي يتصورها الرئيس وهو يتخبط في نهاية رئاسته. وحين توجه بوتين بسيارته إلى المطار، توقع الأخبار السيئة، وهذا ما حدث معه بالضبط، حياه كيريينكو وسلم عليه بحميمية: مرحبًا يا فولوديا. كان شابًّا في سن بوتين، وكان رئيس الوزراء يصغره بعشر سنوات. «تهانينا!».

سأله: «على أي شيء؟».

قال كيريينكو: «المرسوم صار موقّعًا، وعُيِّنت مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي»[18].

ادعى بوتين أنه فوجئ، على الرغم من أن توقُّع تعيينه أشيع في وسائل الإعلام قبل عام من ذلك تقريبًا[19]، وناقش إمكانية ذلك مع ليودميلا قبل ثلاثة أشهر في مشوار مسائي في المنزل الريفي في أرخاننجلسكويا، وهي من اللحظات النادرة التي يخص بها ليودميلا. أخبرها حينها أنه لا يريد العودة إلى (الحياة المغلقة) لعالم الاستخبارات، التي كان يعتقد أنه تركها خلفه عام 1991م، وقال: «ليس لدي الرغبة أن أستحم في النهر نفسه مرتين»[20].

ليودميلا لم تستطب نكهة الاحتمال أيضًا، فلكونها زوجة سياسي موظف في موسكو، فقد عاشت حتى اليوم حياة أكثر انفتاحًا ومثيرة للاهتمام، إذ يسافرون كثيرًا إلى ألمانيا وأماكن أخرى، على الرغم من أنها كانت تسافر في كثير من الأحيان مع البنتين، لا معًا كأسرة واحدة. التنعم بحريتها الجديدة، ذكَّرها بالقيود القمعية التي كان يمارسها زوجها حين كان

في الـ (كي جي بي): «لا تذهبي هناك، لا تقولي ذلك. تحدثي مع هذا الشخص، لا تتحدثي مع ذاك».

مطيع، كما كان دائمًا، لم يرفض بوتين التعيين، واتصل هاتفيًّا بليودميلا يخبرها بالنبأ، وكانت وقتها تمضي عطلتها مع البنتين على ساحل بحر البلطيق، قال لها: «عليك أن تكوني حذرة هناك؛ لأنني عدت إلى المكان الذي بدأت منه». اضطربت ليودميلا، وظنت أنه عاد إلى منصبه في مكتب بورودين، وخفضت رتبته بطريقة ما في الاضطرابات التي تعصف في البلاد، فكرر قائلًا: «عدت إلى المكان الذي بدأت منه»، وكان عليه أن يكرر ذلك للمرة الثالثة قبل أن تفهم ما يقوله، ولم تعرف ما حدث بالضبط حتى عادت إلى موسكو، بعودته إلى خليفته في الـ(كي جي بي)، قال لها: «عيَّنوني، وهذا كل شيء»، ولم تعد تسأله أي سؤال[21].

كيريينكو قدَّم بوتين لأعضاء إف إس بي (FSB) في لوبيانكا يوم الاثنين التالي، المصادف 27 يوليو/تموز 1998م، وحاول استرضاء كوفاليوف، الذي علم عن إقالته من التقارير الإخبارية على شاشة التلفاز، وقال كيريينكو عن ذلك: لقد أدى واجبه على نحو رائع، لكن الظروف تتغير والناس تتغير[22]. عند إعلان الخبر أعرب بوتين عن تقديره لثقة الرئيس، وتعهد ألا ينفذ إعادة الهيكلة التي أمر بها يلتسين وحسب، وإنما سيركز أيضًا على إستراتيجية الحكومة للتخفيف من الأزمة الاقتصادية؛ بملاحقة الجرائم الاقتصادية والتهرب الضريبي، وقال إنه «عاد إلى موطنه».

على الرغم من غضب كوفاليوف من إقالته، فإنه تعامل مع الانتقال بمهنية، وعرض لبديله كل تفاصيل المكان، وفتح الخزنة في مكتبه، وقال له: «هنا دفتر ملاحظاتي السري، وهنا الذخيرة»[23]، وبعد يومين أجرى بوتين مقابلة مع صحيفة كوميرسانت، ذكر فيها الخطوط العريضة لأولوياته، ووعد بتوسيع نطاق العمل المحلي التقليدي للوكالة ليشمل مكافحة التطرف السياسي والقومي، والجواسيس الأجانب، وكل من وصل حديثًا، وتوسيع مواقع الشبكة العالمية على نحو بطيء، وعقب على ذلك بقوله: «من المؤكد أن FSB لا تريد

أن تضع الشابكة تحت سيطرتها»، قال هذا مع أنه يدرك أن أدوات الاتصالات الحديثة يمكن أن تلحق الضرر بأمن البلاد[24].

سبَّب تعيين بوتين تذمرًا في صفوف قدامى المحاربين في الـ FSB وبين المخضرمين كذلك في الـ(كي جي بي)، الذين ينظرون إليه على أنه شخص حديث النعمة ودخيل؛ فهو من بطرسبورغ، وقد أمضى كل خدمته في مواقع إقليمية، ولم يُرقَّ فوق رتبة عقيد، فكان هذا كسرًا غير متوقع وغير عادي لبوتين، وتقدمًا هائلًا غير متوقع؛ لقد تجاوز أكثر الجنرالات خبرة وتأهيلًا، وعدُّوه حديث النعمة أرسل لفرض سيطرة الكرملين على الوكالة، وهو بالضبط ما عقد العزم عليه.

في 1 أغسطس/آب، بعد عودته المفاجئة من إجازته في كاريليا لمعالجة الأزمة الاقتصادية التي تلوح في الأفق، استدعى يلتسين مدير جهاز الأمن الفيدرالي الجديد إلى بيته الريفي في جوركي، خارج موسكو، لمناقشة المنصب الذي يشغله. أراد يلتسين من بوتين أن «يجعل من الخدمة أقل تسيسًا»، وأن تستعيد هيبتها وسلطتها التي كانت تبعث القشعريرة أسفل العمود الفقري للمنشقين الذين ظلت لوبيانكا بالنسبة إليهم مصدرًا للخوف. واقترح يلتسين أن يعود بوتين إلى جهاز المخابرات النشطة، مع ترقيته إلى رتبة جنرال، فرفض بوتين، مذكرًا بقرار استقالته خلال انقلاب أغسطس/آب 1991م، وكشف أيضًا ليلتسين أنه في السنوات السبع الماضية بقي في الاحتياط حينما تحولت الـ(كي جي بي) إلى FSB.

قال بوتين مخاطبًا يلتسين: «أنا شخصية مدنية، ومن الأهمية أن يرأس هذه الوزارة السلطوية شخص مدني»،[25]، وهكذا أصبح أول مدني لرئاسة الـ FSB، وآخر مدني أيضًا[26].

انتقل بوتين إلى مكتب مزخرف في الطابق الثالث من لوبيانكا، ولم ينتقل إلى المكتب التنفيذي القديم القريب الذي كان يشغله من قبل قادة الاستخبارات السوفييت من لافرنتي بيريا إلى يوري أندروبوف، فقد حُوِّل إلى متحف عدَّه بعضهم مزارًا، ووضع على مكتبه تمثالًا

من البرونز لـ(فيليكس دزيرجينسكي)، الذي أسس الشرطة السرية السوفييتية في عام 1917م[27].

بصفته مسؤولًا مخلصًا، كما كان دائمًا، نفذ بوتين تعليمات يلتسين لإعادة تنظيم الوكالة، والحد من الموظفين المركزيين، وهي المهمة التي أصبحت أكثر إلحاحًا مع تدهور المشكلات الاقتصادية وميزانية البلاد، ثم خفض عدد الضباط في لوبيانكا إلى الثلث، أي إلى أربعة آلاف من أصل ستة آلاف، وسط سخط كبير في صفوف أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تخفيضات بوتين على أنها تطهير بدافع سياسة يلتسين. وألغى أيضًا الإدارات التي رأى أن الزمن تجاوزها، وأحدث أخرى جديدة لمواجهة التهديدات الأمنية الأكثر إلحاحًا؛ فقد راقبوا عمل الاستخبارات في المناطق مع التركيز خصوصًا على المناطق الإسلامية التي تغلي، مثل الشيشان، وأمَّن الحاسوب والاتصالات، والأكثر من ذلك الدفاع عن الدستور، وهي المهمة التي تضطلع بها المديرية الرئيسة الخامسة من وكالة الـ(كي جي بي)، التي كانت تصطاد المنشقين في الحقبة السوفييتية. ومثلما فعل حين وصل إلى موسكو قبل عامين، لجأ بوتين إلى مساعديه الذين يمكن أن يثق بهم، من الرجال الذين عرفهم منذ أن كان في الـ(كي جي بي) في بطرسبورغ؛ ألكساندر جريجوريف، وفيكتور شيركيسوف، وسيرجي إيفانوف، وجميعهم جنرالات بخدمة فعلية، وفي مواقع قيادية في جهاز الأمن الفيدرالي.

أعجب يلتسين بتقرير بوتين الفولاذي، وكتب: «لم يسمح لنفسه أن يلعب ألاعيب سياسية، وفي مطحنة الشائعات الغادرة للحكومة في ذلك الوقت، قد يكون من الحكمة لشخص متمرس أن يتجنب المشاحنات»[28].

انغمس بوتين مرة أخرى في حياة مسؤول المخابرات، حيث كل شيء سري، والجميع مشتبه فيهم، وقال مستذكرًا: «لو كنت ضابط مخابرات لكنت دائمًا هدفًا للتدقيق المحتمل، هم دائمًا يتحققون منك، قد لا يحدث هذا كثيرًا، لكنه لن يكون مصدر سعادة لك». حتى وهو مدير وجد نفسه في حالة من التوتر الدائم، وأنه يشارك الوكالة جنون عظمتها أيضًا، وقال:

«إنهم لا يستطيعون حتى الخروج إلى مطعم!»، فجماعته «يظنون أن العاهرات وتجار السوق السوداء هم وحدهم الذين يترددون على المطاعم، فماذا بوسع ضابط شريف من الأجهزة الأمنية أن يفعل بصحبة مثل هؤلاء؟»[29].

وكان من نتيجة ذلك أنه عندما دعا ذات مرة مراسلة شابة جميلة من التجمع الصحفي للكرملين لتناول الغداء في إيزومي، أحد مطاعم السوشي الجديدة في العاصمة، فحين وصلت وجدت المدير الجديد لجهاز الأمن الفيدرالي في انتظارها وحدها، بعد أن أخلي المكان من الرواد الآخرين. وقد وجدت فيه المراسلة يلينا تريغوبوفا رجلًا غَزِلًا حين دعاها لينوتشكا، وشجعها على مشاركته الشرب. لم تحترم موقعه الوظيفي، بل ضمنت المشهدَ في كتاب أوردت فيه رأيه بوسائل الإعلام والصحفيين، الذين كانوا- من وجهة نظره- ليسوا أكثر من نسور وعقبان يسعون إلى استغلال المسؤولين أو إحراجهم لتحقيق مكاسب شخصية لهم[30].

مساء يوم 20 أغسطس/آب، وبعد أقل من شهر من تعيين بوتين في جهاز الأمن الفيدرالي، غادر صحفي من بطرسبورغ، هو أناتولي ليفين أوتكين، مكتب الصحيفة التي أنشئت أخيرًا تدعى **ليغال بطرسبورغ توداي**، يحمل معه ألف روبل، أي قرابة 140 دولارًا، وحقيبة مملوءة بأوراق وصور لمقالات في العدد القادم من الصحيفة، وكان عددها الثالث فقط، إذ لم يكن صدر منها سوى عددين آنذاك. وكان ليفين أوتكين يشغل منصب نائب رئيس التحرير في الصحيفة، التي كانت قد اكتسبت اهتمامًا حقيقيًّا بالمواد التي تتناول قضايا المصارف في المدينة، ومجالات التنافس على النفوذ؛ من ذلك مقال عن أحد المستثمرين المعروفين، بوريس بيريزوفسكي، الذي اشتبك علنًا في العام قبل الماضي مع القلة الأخرى حول خصخصة سفيازينفست، أكبر شركة اتصالات في البلاد. ومقالة أخرى تتعلق بهروب أناتولي سوبتشاك من روسيا، ونشاطات نائبه في الاستثمارات الأجنبية، الذي أصبح اليوم مديرًا للأمن الفيدرالي، وكان عنوانها الرئيس كما يأتي: «**فلاديمير بوتين يصبح رئيسًا لـ FSB بطريقة غير مشروعة**».

ليفين أوتكين لم يكتب أيًّا منهما، ولكنه أسهم في تزكية المقالات، وقال رئيس تحرير الصحيفة، ألكسي دومنين، إن كلًّا من المقالين قد تسببا بالشكاوى الكثيرة بسبب موضوعاتهما، والتقى به- كما ذكر- (مؤيدو بوتين) يشتكون، لكن لم يذكر من هم، وكان الاجتماع ذا (طبيعة سياسية واضحة)، ولم يذكر تفاصيلها[31]. لم تكن الشكاوى حول التغطية الصحفية بالشيء غير العادي، وغالبًا ما تسوَّغ، لكن سرعان ما تُنسى الضجة التي أثيرت حول المادة الصحفية، باستثناء الذي حدث بعد ذلك.

دخل أوتكين بهو مبنى شقته في شارع ردنوفا، وكان يتفحص صندوق بريده عندما اقترب رجلان من الخلف وضرباه بشدة حطمت جمجمته في عدة أماكن، ثم أخذ المهاجمون حقيبته وكل شيء في جيوبه، حتى هويته الصحيفة، وحين وجده جاره كان فاقدًا للوعي في البهو، ونقله إلى المستشفى حيث أجريت له عمليتان جراحيتان، لكنه لم يستعد وعيه أبدًا وتوفي صباح يوم 24 أغسطس/آب.

بات الضرب والاعتداء في بطرسبورغ بموجب عقود مدفوعة الأجر شائعًا جدًّا، وحدث بمعدل مرة واحدة في اليوم مدة من الوقت، ومن ثم فإن جريمة مقتل ليفين أوتكين ما كان لها أن تثار على مستوى عال لو لم تتخذ المنظمات الصحفية قضيته على عاتقها، فقد وجهت نداء إلى الأمم المتحدة تطالب السلطات الروسية بإجراء تحقيق[32]. لا يوجد أي دليل يربط بوتين أو بيريزوفسكي بواقعة الضرب القاتل، ويشك ممثلو الادعاء أن يكون دافع القتل غير السرقة، مع أنه لم يكن واضحًا أن التحقيق في الجريمة كان جادًّا. وهذه هي المرة الأولى التي يظهر بها اسم بوتين وبيريزوفسكي في تقارير وسائل الإعلام التي تتهم الرجلين بالتورط في عملية القتل، ولن تكون الأخيرة. القضية- كما حدثت- خيمت عليها كثيرًا الأحداث المرهقة التي وقعت في أغسطس/آب.

قبل ثلاثة أيام من مقتل ليفين أوتكين، تخلفت روسيا عن سداد معظم ديونها، وانخفضت قيمة الروبل، فتبددت ودائع الملايين من المستثمرين والمواطنين العاديين، وكانت روسيا

على حافة الانهيار الاقتصادي التام، وفاقمت الأزمة الاضطرابات السياسية المحيطة بيلتسين، وستطيح- على ما يبدو- بحياته السياسية. وفي 21 آب/أغسطس، دعا مجلس الدوما لاستقالته، وبعد ذلك بيومين أقال كيريينكو بدلًا من ذلك، واستمر الوضع هكذا خمسة أشهر، ثم عيَّن يلتسين فيكتور تشيرنوميردين رئيسًا للوزراء، الرجل الذي طرده من منصبه قبل خمسة أشهر، وهكذا ضل يلتسين طريقه، وهو الأمل الديموقراطي الكبير لروسيا، وبدت التحركات (الجريئة) التي ادعى أنه يفضلها، بدت اليوم يائسة، وبعد أربعة أيام ظهر على شاشة التلفاز ليعلن أنه لا يسعى لإعادة انتخابه في عام 2000م، ثم اختفى أسبوعين، واكتفى بست زيارات قصيرة إلى الكرملين في ذروة الهلع المالي والسياسي في البلاد.

مجلس الدوما- كما فعل مع تعيين كيريينكو- صوَّت مرتين ضد عودة تشيرنوميردين، وهذه المرة لم يعد لدى يلتسين القدرة على الخداع، فقد أعد البرلمان إجراءات الإقالة، ووفق الدستور لا يستطيع الرئيس حل البرلمان إذا مُرِّرت المادة المتعلقة بالإقالة[33].

وبرزت مواجهة جديدة مع تسريب شائعات عن انقلاب، تغذيها تقارير تقول إن وحدات عسكرية بالقرب من موسكو تلقت أوامر لرفع الجاهزية القصوى. استعد الشيوعيون في مجلس الدوما لتكرار حصار عام 1993م؛ وعلى ما يبدو كانت لديهم الجرأة على تحدي يلتسين إن أمر بذلك.

في 1 سبتمبر/أيلول ظهر بوتين على التلفاز الوطني لينفي نية الكرملين استخدام القوة لحل النزاع السياسي، وأعلن في تصريح تلفازي أن الـ FSB ستتولى تأمين مصالح الشعب، فقال: «إن أولئك الذين ينتهكون الدستور، ويحاولون تقويض نظام الدولة في روسيا بوسائل غير دستورية، سوف يواجهون المقاومة المناسبة ولو باستخدام القوة، هذا شيء يجب أن تكونوا على يقين منه»[34].

في وقت لاحق، عندما ندد ألبرت ماكاشوف، العضو الشيوعي في البرلمان، باليهود لكونهم آفة يجب إزالتها من البلاد، أعلن بوتين أن تحقيقًا بدأ حول تصريحاته، وكان مكتب

النائب العام ومجلس الدوما نفسه مراوغًا في هذه المسألة[35]. سبَّب الجدل ضجة في موسكو، وخرج الناس إلى الشوارع في أثناء الاحتفالات الشيوعية بالثورة، ليدافعوا عن ماكاشوف وتبجحاته المناهضة للسامية، وقدم بوتين تصريحه مع لوبيانكا في الخلفية، موجهًا رسالة ليس فقط للمحتجين وإنما لجهاز المخابرات أيضًا، الذي لا يزال يعج بالتعصب، بأن التعابير البغيضة لن يُتسامح معها.

بعد مضي أسابيع قليلة في عمله لم يعد ذلك المعاونَ القابع في الخلف، المعروف بعدم وضوحه؛ فقد فرض السلطة الكاملة على جهاز المخابرات في البلاد، وبإصرار كبير على عدم السماح لاضطرابات سياسية أو شعبية بتقويض سلطة الدولة، وكتب يلتسين شاكرًا له: «أعتقد أن تعبيره البارد، والدقة العسكرية في صيغه، لها أثر كبير في عدم تشجيع الناس على التسبب بالمشكلات»[36].

الدعم الشعبي لبوتين لم يقدِّم كثيرًا لمساعدة يلتسين، الذي اضطر إلى التخلي عن ترشيح تشيرنوميردين، واستقر مساعدوه، الذين يعملون مع نواب في مجلس الدوما، على المرشح الأقل اعتراضًا عليه من الجميع: يفجيني بريماكوف، وزير خارجية يلتسين منذ عام 1996م. بريماكوف أكاديمي قديم، من عباقرة السوفييت، مستعرب بالتدريب، وأمضى أربعة عشر عامًا صحفيًّا في الشرق الأوسط، ويعمل على صورة وثيقة مع الـ(كي جي بي). وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي تولى جهاز المخابرات الخارجية الذي خرج من رحم الـ(كي جي بي)، وقد اختفى من المشهد العام بين عامي 1992 و1996م، محاولًا إعادة إحياء الوكالة، بالطريقة نفسها التي كان عليها بوتين في نظيرتها المحلية[37]. كان كل منهما متشككًا بالآخر، بريماكوف ذو خبرة طويلة وممتازة في عالم المخابرات، وقد تبين ذلك بعد نشر مهامه السرية ليس فقط في الشرق الأوسط، ولكن أيضًا في الولايات المتحدة[38]، وكان من بين الذين يأملون بأن تكون FSB تحت نفوذهم، ويشتبه أن بوتين سيأتي بزملائه أصحاب الرتب من بطرسبورغ. اختار بوتين (كامل قيادات الـ FSB) للاجتماع به؛ ليثبت لهم أنه لم يمارس أي عملية تطهير[39].

في 11 سبتمبر/أيلول، صوَّت البرلمان بأغلبية ساحقة لتثبيت بريماكوف رئيسًا للوزراء، وخفَّت حدة الأزمة السياسية الحالية. وكان للقرارات اليائسة لحكومة يلتسين بالتخلف عن سداد السندات، وخفض قيمة الروبل، تأثير صادم في المجتمع، لكن في النهاية أثبتت أنها (قرار تنشيطي)، إذ سمحت للاقتصاد باستئناف نموه، وساعدت على انتعاش الإنتاج المحلي، وبدايات الطفرة النفطية[40]، ومع ذلك استمرت حظوظ يلتسين وصحته في التراجع؛ إذ نُقل إلى المستشفى مرارًا في فصلي الخريف والشتاء، وظلت إجراءات عزله قائمة مع تعيين بريماكوف. وفي غضون ذلك ظهر كثير من التهديدات ليلتسين، وسيكون لولاء بوتين له الأثر الحاسم في مواجهتها.

لم يكن قد مضى على بوتين وقت طويل في لوبيانكا عندما وجد نفسه وسط فضيحة علنية أكبر من أي فضيحة واجهها من قبل؛ ففي 17 نوفمبر/تشرين الثاني 1998م، عقد ستة رجال مؤتمرًا صحفيًّا غريبًا ومثيرًا في موسكو، وكان أربعة منهم يرتدون أقنعة ونظارات داكنة، والاثنان الآخران غير مقنعين؛ هما ألكسندر ليتفينينكو وميخائيل تريباشكين، وكانوا جميعًا من قدامى المحاربين في الـ FSB، وأفصحوا أمام الصحفيين الوطنيين والدوليين عن قصة مخيفة من الفساد والتآمر، وقالوا إن وحدة الجريمة المنظمة التي يعملون فيها تحولت في حد ذاتها إلى مؤسسة إجرامية، تعمل مع عصابات روسية ومقاتلين شيشان، يبتزون الشركات التي يفترض أن يوفروا لها الحماية، وغالبًا ما يكون لهذا الابتزاز تأثير قاتل. وزعموا أن رؤساءهم خططوا لخطف شقيق رجل أعمال بارز، عمر دزهربريلوف، وأمروا بضرب تريباشكين بعد أن أعفي من مهامه في التحقيق في مخالفات، وكان الأكثر إثارة للجميع ما شرحوه عن كيفية تلقيهم الأوامر من ضباط يعملون اليوم في وكالة يرأسها فلاديمير بوتين، لاغتيال بوريس بيريزوفسكي.

نفوذ بيريزوفسكي داخل الكرملين لم يكن بالحجم الذي يدعيه، وقد أخبر مسؤولين سرًّا عن المؤامرة المزعومة ضده، وكان يعتقد أن لها دورًا في إقالة كوفاليوف. من بين الأعمال الأولى التي فعلها بوتين حين صار رئيسًا لـ FSB هو حل وحدة الجريمة المنظمة التي

اتهمها هؤلاء الرجال بأنها أصبحت وحدة مارقة؛ فأقال معظم ضباط الوحدة أو نقلهم، غير أن التحقيق الداخلي في أمر اغتيال بيريزوفسكي لم يثبت أي اتهامات جنائية ضد قادة الوحدة (قال أحد مدعي بيريزوفسكي إن أمر قتله كان مزحة)، ومن ثم فقد كان إغلاق القضية هو ما دفع ببيريزوفسكي لكشفها على الملأ، فناشد بوتين مباشرة في رسالة مفتوحة نشرت في صحيفة كوميرسانت في 13 نوفمبر/تشرين الثاني، وكتب يخاطبه: «فلاديمير فلاديميروفيتش، كنت قد ورثت تركة ثقيلة من أسلافك؛ الأعضاء المجرمون والمسؤولون على مختلف المستويات الذين طالهم الفساد، ومن بينهم المسؤولون في وكالتك، يضربون الناس الذين لا يرغبون في العودة إلى كونهم قطيعًا من الماشية. رعب الجريمة يزداد في روسيا»[41]. لم يوضح بيريزوفسكي سبب النداء المباشر الذي وجهه إلى بوتين، ولكن يشتبه بعض المسؤولين والصحف أنه حاول تشويه سمعة بوتين أو غيره في الكرملين، أو- على العكس- لاستعادة بعض النفوذ الذي كان يحظى به ذات يوم في داخله.

عندما أخفقت الرسالة في تحقيق شيء يذكر، ظهر المعنيون من الاستخبارات علنًا للرأي العام بعد أربعة أيام؛ فظهر ألكسندر ليتفينينكو، زعيم عصابة المؤتمر الصحفي، الذي كان قد عمل لحساب مديرية مكافحة التجسس العسكرية التابعة للـ(كي جي بي) في أواخر الثمانينيات، ويعمل اليوم- في التسعينيات- لحساب الـ FSB، مركزًا على الإرهاب والجريمة المنظمة، وقال إنه لم يكن جاسوسًا أو عميلًا سريًا، بل عمل محققًا ومنفذًا. كان- كما بوتين- مناسبًا لموقعه، ووطنيًا، ووفيًا للأجهزة الأمنية، ورُفِّع إلى رتبة عقيد، لكنه في ذلك الوقت أصيب بخيبة أمل، وقال إنه فوجئ إذ رأى أن وكالة مارقة، وخاصة الوحدة التي أنشئت عام 1996م لمكافحة الجريمة المنظمة، والتي اشتهرت بوحشيتها القاسية وفسادها[42].

لم يعد الخط الفاصل بين خدمة الدولة، وخدمة القلة، والمافيا، واضحًا، وليتفينينكو نفسه أزاله؛ ففي عام 1994م عُيِّن للتحقيق في محاولة اغتيال بيريزوفسكي، التي جرت حين كان يغادر مكتب بيع السيارات بسيارة مرسيدس بسائق، فانفجرت قنبلة يُتَحكَّم فيها عن

بعد، وخدشت السيارة بشظاياها، وقُطع رأس السائق، لكن بيريزوفسكي نجا بطريقة ما. وبينما كان ليتفينينكو يجمع الأدلة كان يغرق في استعباد بيريزوفسكي؛ ذلك المليونير، الذي أدرج اسمه على الفور في كشف الرواتب التي يدفعها؛ بصفته الحارس والمستشار الشخصي له، على الرغم منه أنه يواصل الخدمة في الـ FSB.

كان كثير من الضباط لا يقبضون رواتبهم- على الرغم من أنها هزيلة- في الوقت المحدد، لذلك كانوا يمارسون أعمالًا إضافية لدى رجال المال والأعمال، وهذا أحد أعراض التراجع في جهاز المخابرات. وحين تلقى أمرًا بقتل بيريزوفسكي في شتاء عام 1997م، حسب روايته، ادعى أنه رفض الأمر، وأخبر بيريزوفسكي بتفاصيل المؤامرة.

بدأ ليتفينينكو المؤتمر الصحفي بقراءة بيان، ثم أكد أن الفساد الذي كُشف عنه حدث قبل وصول بوتين إلى الـ FSB في نهاية يوليو/تموز، وناشد بوتين بتطهير الوكالة، قال: «نحن لا نسعى إلى تسوية في جهاز الأمن الاتحادي، وإنما نريد تنقيته وتعزيزه»[43]. لم يكن لديهم دليل سوى بعض شهاداتهم، على الرغم من ادعائهم خلاف ذلك، «لقد سعيت بمحاولات شتى إلى الوصول إلى فلاديمير، وتقديم كل هذه الحقائق له، لكن لم تتح لنا مثل هذه الفرصة؛ لقد منعونا من الوصول إليه»، ثم ناشد بوتين مباشرة: «سوف أغتنم هذه الفرصة؛ أعتقد أنه سيطلع على هذا المؤتمر الصحفي المسجل، وأود أن أقول له ما يأتي: لدي دليل على أن نوابه يخدعونه، وأنا لا أستطيع تقديم دليل مادي، ولو دعاني إلى مكتبه فسأظهر له هذه المواد».

الضجة التي أثيرت لاحقًا وضعت بوتين في موقف حرج، فلا يستطيع أن يصد بيريزوفسكي بهذه البساطة، الذي لا يزال يدعي أن له تأثيرًا في الكرملين، وفي الوقت نفسه كانت الاتهامات فاضحة، وقد أغضبته، وقد رد على رسالة بيريزوفسكي بنفسه، وأرسل الرد إلى صحيفة كوميرسانت يوم المؤتمر الصحفي، وقال: «نحن لا نخاف من غسل ملابسنا القذرة في الأماكن العامة»، وأضاف أنه سيجري تحقيقات داخلية في أي اتهامات. وعلى نحو غير مباشر حذر بيريزوفسكي- (المعروف جيدًا بإخلاصه للقيم الديموقراطية)- من

أنه حين يتدخل في شؤون الـ FSB فإنه يدخل في المحظور، وحذره من أنه إذا ثبت كذب الادعاءات فإن FSB لن يكون لها أي خيار سوى رفع دعوى قضائية ضد المفترين، ليس ضد بيريزوفسكي فقط، وإنما أيضًا ضد موظفي تحرير الصحيفة؛ لطباعتهم رسالته[44]. وبذلك أثبت بوتين أنه غير متسامح في الانتقادات الموجهة لوكالته، والانشقاق داخلها.

في نهاية الشهر، استدعى بوتين بهدوء ليتفينينكو إلى مكتبه، تمامًا مثلما طلب ليتفينينكو منه أن يفعل، وقد حضر ليتفينينكو وملء ذراعيه الوثائق، ومن بينها المخطط الذي في ذهنه، وربط به جميع الأسماء والجرائم التي عرفها هو وزملاؤه. يتصور ليتفينينكو وبوقاحة أن بوتين عقيد مثله، وهو متوسط المستوى، وقد أصبح فجأة مسؤولًا عن مئات الجنرالات المحنكين، وكل ما لديهم من مصالح وعلاقات وأسرار[45]، لم يعرف كيف سيخاطب الرجل الذي يرأس اليوم وكالته؛ هل يدعوه (الرفيق العقيد)؟ لكن بوتين استبقه فنهض واقفًا من مكتبه لمصافحته، ويتذكر ليتفينينكو أنه «بدا أقصر مما هو عليه على شاشة التلفاز». كان اجتماعًا قصيرًا، وكان يعتقد ليتفينينكو أنه بارد؛ فقد أصر بوتين على تلبية طلبه وحده، دون الزميلين اللذين كانا برفقته، ورفض بأدب تسلُّم الملف الذي جلبه معه.

وصف ليتفينينكو الاجتماع لزوجته مارينا وكأنه كارثة؛ «كنت أرى في عينيه أنه يكرهني»[46]. وكان بوتين قد جمع ملفًّا خاصًّا به ضد ليتفينينكو وغيره، وفي مساء يوم 19 نوفمبر/تشرين الثاني، ظهر على شبكة تلفاز (روسيا)، وعلى الرغم من وعده بإجراء تحقيق فإنه أصر على أنه لا يوجد دليل صحيح على أي من الاتهامات ضد الـ FSB، وسخر من المؤتمر الصحفي الذي عدّه مشهدًا مع «شخصيات من قصص الأطفال»، يرتدون أقنعة على الرغم من أنهم أعلنوا أسماءهم، وذكر أن الزوجة السابقة لأحدهم- لم يذكر زوجة أي منهم، لكن يبدو أنه لم يقصد ليتفينينكو- اتصلت به بعد ذلك، تشكو تخلفه عن دفع النفقة، وهو أمر غير مناسب، وربما كان هذا هو السبب في كونه يرتدي نظارات داكنة، ثم قلب الطاولات، وقال إن الوكلاء أنفسهم مارسوا عمليات غير مشروعة[47].

استدعى يلتسين بوتين إلى بيته الريفي مرة أخرى في اليوم التالي، وطلب منه حلًّا للفضيحة المحرجة التي تتصاعد؛ «جميع الناس يعرفون ما يحدث لأناس مثل هؤلاء على يد يلتسين شديد اللهجة»، كتبت إحدى الصحف عن الاجتماع[48]. لم يلن بوتين ورأى أنه حتى إن كانت بعض اتهامات الوكلاء حقيقية، فقد كانوا متواطئين كما رؤسائهم، وأنه من خلال عقدهم مؤتمرًا صحفيًّا خانوا قَسَمهم ومناصبهم بصفتهم ضباط مخابرات، ومن ثم فإنه بدلًا من التحقيق في مطالبهم، قدم للرئيس الأدلة التي كان قد جمعها من مخالفاتهم، ثم أقال ليتفينينكو ورفاقه، وقال: «مثل هؤلاء لا يمكنهم أن يعملوا في الـ FSB».

معالجة بوتين للقضية لم تكسبه الدعم الشامل في الكرملين، وظهرت شائعات بأن يلتسين ينوي إقالته لعدم الكفاءة، ولم يكن قد مضى عليه سوى أربعة أشهر من العمل. تخفيض عدد الموظفين في لوبيانكا لم يكن شائعًا على الصعيد السياسي في مجلس الدوما، الذي استمر بالهجوم على رئاسة يلتسين في كل فرصة سانحة. وبدا موقف بوتين فجأة غير مستقر، خاصة بعد مقتل غالينا ستاروفويتوفا، النائبة الليبرالية البارزة من بطرسبورغ، التي قُتلت بعد ثلاثة أيام فقط من مؤتمر ليتفينينكو الصحفي.

كانت ستاروفويتوفا ناشطة إثنوغرافية، برزت على الساحة خلال البيروسترويكا مدافعةً شرسة عن حقوق عدد من المجموعات العرقية في روسيا، ولم تكن هي وبوتين قطُّ على علاقة وثيقة، لكن خلال عملهما في بطرسبورغ طوال التسعينيات، عرفت سوبتشاك وزوجته أيضًا. وفي سبتمبر/أيلول 1998م ظهرت في برنامج تلفازي باسم يناسب العصر: (**فضائح الأسبوع**)، وأشارت إلى أن التسريبات المتجددة عن اتهامات جنائية ضد سوبتشاك تبدو محاولة لتشويه سمعة المدير الجديد لجهاز الأمن الفيدرالي فلاديمير بوتين، وأشارت إلى أن سوبتشاك رسميًّا يبقى أحد الشهود في التحقيق وليس مشتبهًا فيه، وباعتقادها فهي ليست سوى مؤامرة مضحكة قد تطول بطريقة ما بوتين نفسه، «وأنا لا أستبعد ذلك على الأقل، وإن كانت بطبيعة الحال أمرًا يثير السخرية»[49].

في ليلة 20 نوفمبر/تشرين الثاني عادت ستاروفويتوفا إلى شقتها في غريبويدوف كانال، مع أحد مساعديها رسلان لينكوف، فأطلق مهاجمون خمس رصاصات على الأقل، ثلاث منها أصابت ستاروفويتوفا في الرأس وقتلتها على الفور، واثنتان أصابتا لينكوف الذي نجا[50]. ألقى المسلحون بمسدساتهم في مكان الحادث وانطلقوا في سيارة كانت بانتظارهم، وكان هذا الهجوم بكل حيثياته ضربة أخرى مدفوعة الأجر (ضربة بعقد)، وقد أثار إدانة دولية. قال أحد مؤيديها، سيرجي كوزيريف: «أن تقتل امرأة، امرأة في السياسة، هذا لم يحدث في روسيا منذ عهد ستالين»[51]، وندد يلتسين بالجريمة، ووصفها بأنها «تحدٍّ سافر لمجتمعنا بكامله»، وأصابه الذهول من هذه الأنباء، ونقل عن أحد مساعديه أنه نقل إلى المستشفى في اليوم التالي[52]. هو وبريماكوف أمرا بوتين، ووزير الداخلية سيرجي ستيباشين، والنائب العام يوري سكوراتوف، أن يتبنوا الأمر على أنه (اتهام شخصي) في أثناء التحقيق، وطالبا بالنتائج.

كانت ستاروفويتوفا قد أعلنت من وقت قريب ترشحها لمنصب محافظ منطقة لينينجراد (خلافًا للمدينة، لم تغير اسمها السوفييتي)، وكانت قد نددت بالقومية الصفراء المتداولة في المناقشات البرلمانية، وجمعت أدلة على الفساد في حكومة بطرسبورغ، ولم يكن ثمة نقص في الدوافع والمشتبه فيهم المحتملين؛ فقد اعتقلت الشرطة أكثر من ثلاث مئة شخص في الأسابيع التي تلت وفاتها[53]، ومع ذلك لم يعرف الدافع كليًّا وراء قتلها.

انتقد يلتسين، المريض والمحبط، تلك الجريمة ملقيًا باللوم على ما يحصل من مشكلات متفاقمة في البلاد في ذلك الشتاء على (اندلاع الهستيريا الشيوعية)، التي لم تشمل فقط الاستنكارات المتكررة لليهود، وإنما الدعوة أيضًا لعودة تمثال فيليكس دزيرجينسكي إلى قاعدته خارج مقر الـ (كي جي بي) القديم، حيث يعمل بوتين اليوم. وقد أغضب يلتسين عدم تحرك (مكتب المدعي العام الذي يهدد عادة) لمواجهة ما عده التحريضات الإجرامية للإطاحة بالديموقراطية[54]. بدا مقتل ستاروفويتوفا في روسيا إضرابًا آخر في البلاد، يصيبها بالشلل، وضد يلتسين أيضًا.

رئيس وكالة المخابرات الداخلية للبلاد (بوتين) يتحمل بعض اللوم على الأقل، في اعتقاد يلتسين، وأصبح مصير بوتين السياسي اليوم يرتبط بنزوة يلتسين التي لا يمكن التنبؤ بها، فقد استدعاه مرة أخرى في 15 ديسمبر /كانون الأول، وهذه المرة إلى الكرملين، وفي أحد الأيام القليلة التي يكون فيها في مكتب الرئاسة؛ يريد مناقشة قضية ستاروفويتوفا، واندلاع عبارات عنصرية في البرلمان، والمؤامرة ضد بيريزوفسكي، وأين وصل بوتين في إعادة هيكلة جهاز الأمن الفيدرالي.

خرج بوتين من الاجتماع مؤكدًا أن ثقته بالرئيس لم يفقدها قطعًا، لكن بدا كمن فقدها، واتهم أولئك الذين ينشرون الشائعات، ويبدو أنهم من داخل جماعات يلتسين المتحاربة، فهم يريدون «زرع بذور الشك بين فريق الخدمة الإداري والتنفيذي، أو إضعاف سيطرته». قال بوتين: «يكمن الخوف من القاعدة التي انطلقت منها الشائعات، الخوف من الأجهزة الأمنية». وبدا بوتين وكأنه غير متشبث بمنصبه، وقد أعلن ذلك عندما انتهت ولاية يلتسين، حيث أمضى بصعوبة عامًا ونصفًا، وأنه سوف يستقيل لإفساح المجال لرئيس مخابرات جديد تحت قيادة جديدة، «من الواضح أن عليَّ أن أغادر»[55].